الحسن البصري
دراسة في الذات الزهدية والاتجاهات الفكرية

أ. د. خليل إبراهيم جاسم
جامعة الموصل / كلية التربية الأساسية

تاريخ تسليم البحث : 2004/3/16 ؛ تاريخ قبول النشر : 2004/5/25

ملخص البحث :

يعد الحسن البصري من أعلام الزهد في التاريخ الإسلامي . وفي محاولة لوضع صورة أبعاد تجربته الزهدية ، فان البحث تضمن سيرته وتكوينه الفكري المرتكز على فهمه الشريعة الإسلامية . كما تطرق البحث الى مكونات بناء ذاته الزهدية التي اعتمدت العبادة والمجاهدة النفسية وصولا لتحقيق امثل لاهمية الزهد في بناء الشخصية الإسلامية . كما تناول البحث اتجاهاته الفكرية التي استهدف فيها إصلاح الفرد والمجتمع والسلطة بتفاعلية إيجابية وعلى حد سواء .

Al-Hassan Al-Basri
A Study in his Zuhud self and his thinking trends

Dr. Khalil I. Jassim
Mosul University\College of Basic education

Abstract:

Al-Hassan Al-Basri is regarded one of the Pioneers of Al-Zuhud in Islamic history . In order to put a landscape of his Zuhud experiment the research shed light on his Biography , his way of thinking based on his understanding of his Islamic sharea .

The research also studied the elements helped in constructing his Zuhud self depended on worship and fighting temptations in order to reach the right status of Zuhud in building Islamic character .

The research also dealt with his thinking trends aiming at putting the relationship between individuals , society and power in appositive and equal status

المقدمة:

يعد الحسن البصري من أعلام الزهد في التاريخ الإسلامي ، ولعل دراسة ذاته الزهدية واتجاهاته الفكرية تفضي الى امكانية التصور الى مؤشرات فاعلة لدوره في وضع مرتسم دور الزهد وتأثيره الاجتماعي بهدف بناء مرتكزات مجتمع اسلامي يتمثل الشريعة الاسلامية سلوكا واخلاقا يتوافق معها الزهد بوصفة نقاء ذاتيا يؤدي الى تكوين امثل للشخصية والمجتمع الاسلاميين على السواء . وبغية تحقيق ذلك ، فقد تضمن البحث ثلاثة محاور .

تضمن المحور الاول ، سيرة الحسن وتكوينه الفكري والزهدي ، ابتداء من نشأته في البيت النبوي الشريف ، ومشاهدته اغلب الصحابة ﴿رضي الله﴾ في المدينة المنورة . واعقب ذلك ، انتقاله الى مدينة البصرة في العراق والتي لقّب بها مكانيا ، فشرع بتحصيل علوم اللغة العربية والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، فضلا عن مشاركاته في حملات الجهاد لنشر الدين الاسلامي في المناطق الشرقية للدولة الاسلامية .

وتطرق المحور الثاني الى ذات الحسن الزهدية ووعظه الاجتماعي ، تلك الذات التي تكونت عبر عبادة قوامها الورع ومجاهدة النفس وكبح جماحها في نزوعها الدنيوي وترويضها، واضعا نصب عينه الدار الاخرة بوصفها الحقيقة لمآل الانسان . كما تعرض المحور الى خطاب الحسن الوعظي لمختلف فئات المجتمع الاسلامي في مدينة البصرة ، ذلك الوعظ استهدف فيه الحفاظ على تطبيقات احكام الشريعة الاسلامية في المجتمع ، مما يعني في نتائجه النهائية الوصول الى صورة الزهد المثلى التي يمكن تحقيقها عندما تكون التذكرة بعدا فاعلا في الحفاظ على البناء الاخلاقي للمجتمع .

وتناول المحور الثالث ، اتجاهات الحسن الفكرية التي استهدف فيها الحفاظ على وحدة الامة الاسلامية تجاوزاً للفتن بين المسلمين وبيان مخاطرها . وفي مقابل ذلك ، لم يتجاوز الحسن وعظ الخلفاء ترهيبا وترغيبا ، والمتمثل برسائله الى بعض الخلفاء الامويين والتي ادت غايتها ، اذ ظهرت صورة زهد الخليفة عمر بن عبد العزيز واضحة في التاريخ الاسلامي .

كان الحسن البصري مثالا في الزهد الاسلامي ، اذ عدّ احكام الشريعة الاسلامية مرتكزاً في بناء رؤيته الزهدية وتفاعله الاجتماعي ، وعليه ، كان موضع ثناء الخلافة والرعية على حد سواء .

المحور الاول : السيرة

ولد الحسن بن يسار في المدينة المنورة سنة (21هـ –641م) ، وكان والده من سبي مدينة ميسان في العراق ، فأعتق في المدينة المنورة وتزوج امراة تدعى (خيرة) فأنجبت الحسن . ولما كانت (خيرة) مولاة تقوم بخدمة ام المؤمنين زوج الرسول ﴿ﷺ﴾ ام سلمة المخزمية (رضي الله

عنها) ، فقد نشأ الحسن في البيت النبوي الشريف ، اذ كانت ام المؤمنين تقوم برعايته عند غياب امه لشأن من شؤون خدمة البيت النبوي الطاهر .[1]

واثرت البيئة النبوية في بيت الرسول ﴿ﷺ﴾ في نشأة الحسن تنشئة ايمانية ، اذ تخلّق بأخلاق بيت النبوة ، ومنها حرصه على الحضور في مسجد الرسول ﴿ﷺ﴾ ، فرأى الكثير من الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ ، وسمع منهم الاحاديث النبوية الشريفة [2] ، مما هيأ له الامكانية في تكوين ذاته الايمانية ، اذ كان عمره انذاك اربع عشرة سنة [3] . وعليه ، يمكن القول ان اوليات بناء ذاته ارتكزت على اسس اسلامية نقية جعلت منه في الفترات اللاحقة من حياته اكثر قدرة على اكتساب العلوم الاسلامية وفهمها وفق احكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة .

ولعل من اكثر الابعاد تأثيرا في حياة الحسن في المدينة المنورة ، استشهاد امير المؤمنين عثمان بن عفان ﴿رضي الله عنه﴾ ، فقال الحسن بهذا الشأن الخطير ((كنت بالمدينة يوم قتل عثمان وكنت ابن اربع عشرة سنة)) [4] . ويبدو ان هذا الاعتداء ترك في نفسه حزنا بالغا ، اذ هاله التجرؤ على امير المؤمنين وخليفة رسول الله ﴿ﷺ﴾ .

انتقل الحسن واسرته الى مدينة البصرة في العراق سنة (36هـ – 656م) ، واستقر فيها. وعند اكتمال شبابه تزوج ورزق بولدين ، سعيد وبه يكنى ، وعبد الله ، وابنة واحدة[5]. واتسمت حياته في البصرة بالبساطة مقتفيا في ذلك سير الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ ، اذ كان يكتفي بسد رمق اسرته ، ويتصدق بالباقي على المحتاجين والفقراء [6] .

حرص الحسن البصري على اكتساب العلوم الشرعية من بعض الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾، ويعد عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) : (ت:68هـ – 687م) في مقدمة شيوخه ، وخصوصا في علم التفسير ، وفي هذا المجال يقول الحسن ((ان اول من عرف بالبصرة ابن عباس ، صعد المنبر فقرأ سورة البقرة ، ففسرها حرفا حرفا))[7] . ويعد ابن عباس من اوثق الصحابة قدرة في علوم القرآن الكريم، فهو حَبر الامة، اذ كان موضع رعاية الرسول ﴿ﷺ﴾: ((فعن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس ، ان رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان في بيت ميمونة ، فوضعت له وضوءا من الليل . قال : فقالت له ميمونة : وضع لك هذا يا رسول الله عبد الله بن عباس، فقال ﴿ﷺ﴾ : (اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل)))[8] . وروى الحسن الحديث النبوي الشريف عن صحابة الرسول ﴿ﷺ﴾ ، ومنهم عبدالله بن عباس ، وعمران بن حصين ، ومعقل بن يسار ، والنعمان بن بشير[9] .

ويعد الصحابي ابو موسى عامر بن قيس الاشعري ﴿رضي الله عنه﴾ : (ت : 52هـ–672م) من اهم الشخصيات التي اثرت في تكوين توجهات الحسن الزهدية والتي كانت ماثلة في حياة الاشعري ، اذ كان قدوة الزهاد في مدينة البصرة ، ويصفه الحسن بقوله ((ان عامرا صفى قلبه من شعبة الولد والاهل))[10] . ويقصد الحسن بذلك اعتزال الاشعري ملذات الدنيا وشهواتها . كما

اثر الزاهد صلة بن اشيم العدوي في تعميق شخصية الحسن الزهدية ، اذ وصل العدوي الى مديات بعيدة في فهمه معنى الزهد الى الحد الذي كان يلجأ فيه الى المقابر خوفا من فتن الدنيا وتحقيقا لصورة الورع الحقيقي في قلبه ، وحبه (الله تبارك وتعالى)[11] . ويذكر الحسن على الدوام الابعاد الزهدية في شخصية العدوي بقوله ((طلبت من الدنيا مضان حلالها فجعلت لا اصيب منها الا قوتا ، اما انا فلا اعيل فيها ، واما هو يجاوزني ، فلما رايت ذلك ، قلت : أي نفسي جعل رزقك كفافا فاربعي فربعت ولم تكد)) [12] .

وتتضح في هذا النص معالم الانوار الايمانية في زهد العدوي ، اذ لم تعد الدنيا في نظره الاّ دارا فانية ، فلا يمكن اتخاذها قرارا ، ولما كان (الله تبارك وتعالى) قدر الاقوات والاحوال ، فينبغي فهم ذلك ، ولعل ترويض النفس بكبحها عن ملاذها وشهواتها يعد من اساسيات تحقيق معنى علاقة العبد المؤمن بربه (تبارك وتعالى) .

تشكلت شخصية الحسن البصري الفكرية والزهدية بوقت واحد ، اذ كانت يعقد مجلسه في مسجد البصرة الجامع حيث المناقشات الواسعة التي تصل احيانا الى مديات خطيرة ، وعلى الرغم من ذلك ، فان الحسن كان واسع الصدر ، يسمع كثيرا ويرّد قليلا ، ومنها مناقشة تلميذه واصل بن عطاء حول مرتكب الكبيرة ، هل هو مخلد في النار ؟ وانتهت المناقشة الى نشوء تيار فكري جديد ، انطلق من رد الحسن بقوله ((اعتزلنا واصل)) [13] . وهذا التيار هو المعتزلة الذين ادوا ادوارا فكرية فاعلة في الحضارة الاسلامية خصوصا في العهد العباسي منها ، والقصد من ذلك ان الحسن البصري ادرك ان المناقشات اخذت ابعادا خطيرة في الفكر الاسلامي ، فهي محاولة اسقاط احكام عقلية على نصوص دينية ، فلذلك عدا الحسن تلميذه واصل بن عطاء معتزلا ، لانه خرج الى فروع فيها الكثير من الخطورة على وحدة الفكر الاسلامي .

اما المجلس الثاني ، فكان يعقد في بيته اذ كان الحسن ((يخلو مع اخوانه واتباعه من النساك والعباد ، امثال ، مالك بن دينار ، وايوب السختياني ، ومحمد بن واسع ، وفرقد السبخي ، وعبد الواحد بن زيد ، فيقول : هاتوا ، انشروا النور ، فيتكلم عليهم في هذا العلم من علم اليقين والقدرة ، وفي خواطر القلوب ، وفساد الاعمال ووسواس النفوس)) [14] .

ومن الواضح ان اولئك الزهاد كانوا من تلاميذه الذين اصبحوا فيما بعد اعلام في الزهد الاسلامي ، اذ كان يدور الحديث حول الزهد في الدنيا واهميته في تكوين الصفاء الروحي للمسلم ، فكان موضوع الرقائق الذي يعني ما يرق القلب لذكره من احاديث الرسول ﴿ﷺ﴾ وسير الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ بكل ابعادها الايمانية . لقد كانت حياتهم لحظة ترقب للرحيل عن هذه الدنيا الفانية والثبات على الاسلام ، ولهذا كان الحسن يختم مجلسه بالدعاء ((اللهم برئ قلوبنا من الشرك والكبر والنفاق والرياء والسمعة والريبة والشك في دينك ، يا مقلب القلوب ، ثبت قلوبنا على دينك واجعل ديننا الاسلام القيم)) [15] .

وشكل الجهاد بعدا حيويا في حياة الحسن البصري ، اذ حرص على الاشتراك في الحملات الجهادية لنشر السلام صوب المشرق ، حيث شهد مع جيوش المسلمون فتح مدينتي كابل و زابلستان وغيرهما ، مستمرا في جهاده قرابة ثلاث سنين [16] .

بدأت معالم جدلية الزهد والفكر لدى الحسن في تطبيق رؤيته الايمانية بعلاقة مع القائمين على امر المسلمين نصحا وتوجيها ونقدا اذا اقتضى الامر ، فعندما ولي عمر بن هبيرة الفزاري العراق سنة (130هـ-721م) استدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين وعامر الشعبي ، وهم من اعيان التابعين ((فقال لهم : ان يزيد خليفة الله استخلفه على عباده ، واخذ عليهم الميثاق بطاعته ، واخذ عهدنا بالسمع والطاعة وقد ولاني ، فما ترون ؟ فقال ابن سيرين والشعبي قولا فيه تقية ، فقال ابن هبيرة ما تقول يا حسن ؟ فقال : يا ابن هبيرة ، خف الله في يزيد ولا تخف يزيد في الله ، ان الله يمنعك من يزيد وان يزيد لا يمنعك من الله ، واوشك ان يبعث اليك ملكا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصرك الى ضيق قبرك ، ثم لا ينجيك الا عملك ، يا ابن هبيرة ، ان تعص الله فانما جعل الله هذا السلطان ناصرا لدين الله وعباده ، فلا تركبن دين الله وعباده بسلطان الله ، فانه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)) [17] . ولعل رؤية واضحة لكلام الحسن يعطي امكانية الحكم على مصداقية ايمانيه في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وان كان المخاطب والياً او اميرا او خليفة . كما يظهر النص المدى الذي بلغه الحسن في ورعه وعمق حبه (لله تبارك وتعالى) الى الحد الذي جعل من القبر مفتاح مكانة الانسان في الدار الاخرة .

شكلت مراحل اكتساب الحسن البصري العلوم الشرعية وجهاده في سبيل الله (تبارك وتعالى) ، فضلا عن اتجاهاته الفكرية في المجتمع جدلية تفاعلت في صورة الزهد ومضمونه بقوله ((والله ما احد من الناس بسط له في امر من امور الدنيا ، فلم يخف ان يكون ذلك مكرا به واستدراجا له الا نقص ذلك من عمله ودينه وعقله ، ولا احد امسك الله الدنيا عنه ولم ير ان ذلك خيرا له الا نقص من عمله وبان العجز في رأيه ... ما عجبت من شيء كعجبي من رجل لا يحسب حب الدنيا من الكبائر ، وايم الله ان حبها لمن الكبائر ، وهل تشعبت الكبائر الا من اجلها ، وهل عبدت الاصنام وعصي الرحمن الا لحب الدنيا وايثارها)) [18] .

ان الابعاد الواردة في النص تشير بشكل واضح الى مدى العمق الزهدي في شخصية الحسن والمرتكز على الفكر الواعي لتقويم صورة حب الدنيا بوصفها احدى الاركان التي تدفع الانسان باتجاه الغفلة عن ذكر (الله تعالى) ، مما يؤدي الى وقوع الانسان بهاوية الركون الى الدنيا دون الاستعداد للموت الذي يشكل انتقالة حياة المسلم الاخروية .

ويطرح الحسن مقارنة بين زهد الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ وبين المتغيرات الاجتماعية في عصره بقوله ((والله لقد ادركت سبعين بدريا اكثر لباسهم الصوف، ولو رأيتموهم قلتم مجانين، ولو رأوا

خياركم قالوا ما لهؤلاء من خلاق ، ولوا رأوا شراركم لقالوا ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب . ولقد رأيت اقواما كانت الدنيا اهون على احدهم من التراب تحت قدميه ، ولقد رأيت اقواما يمسي احدهم وما يجد عنده الا قوتا ، فيقول : لا اجعل هذا كله في بطني ، لاجعلن بعضه لله عز وجل ، فيتصدق ببعضه ، وان كان احوج ممن تصدق به عليه)) [19] . ولعل الدلالات الزهدية في كلام الحسن جاءت من مشاهداته العيانية للتحولات التي حصلت بعد جيل الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ من الذين كانوا مع الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في معركة بدر في السنة الثانية للهجرة ، وبين واقع المجتمع الاسلامي في عصر التابعين ، وعليه ، فان الزهد الذي اعتمده الحسن في بناء ذاته الايمانية كان قوامه الزهد الذي كان ماثلا في مجتمع الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ بوصفه القياس الحقيقي لمعنى الزهد وتطبيقاته في الحياة الدنيا .

وبناء على ما تقدم ، كانت سمة الورع غالبة على نفسيته الى حد ظهور الحزن في حياته ، موضحا ذلك بقوله ((ان المؤمن يصبح حزينا ، ويمسي حزينا ، ولا يسعه غير ذلك، لانه بين مخافتين ، بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين اجل قد بقي لا يدري ما يصيب فيه من المهالك)) [20] .

لم تغادر فكرة الموت ذات الحسن البصري ، ولذلك كانت وصيته ماثلة امامه ، كتب فيها ((بسم الله الرحمن الرحيم . اما بعد : فان الحسن عبد الله وابن امته يشهد ان لا اله الا الله حده لا شريك له وان محمداً عبده ورسوله ، من لقي الله بها صادقا لسانه مخلصا قلبه ، ادخله الله الجنة)) [21] . توفي الحسن البصري في يوم الجمعة في مستهل شهر رجب عام (110هـ – 728م) ، وحزن المجتمع البصري عليه حزنا شديدا ادراكا لمكانته الايمانية بوصفه احد اعلام الزهد في الاسلام [22] .

المحور الثاني : الذات الزهدية والوعظ الاجتماعي

تكّونت ذات الحسن الزهدية ووعظه الاجتماعي عبر مراحل تعبدية في ادق تفاصيلها، ويمكن وضع مرتسم لمعنى الزهد وفق منظور الحسن من خلال قوله ((يا ابن آدم عملك ، فانما هو لحمك ودمك ، فانظر على أي حال تلقى عملك ، ان لاهل التقوى علامات يعرفون بها ، صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، ورحمة الضعفاء ، وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، وقلة المباهاة للناس ، وحسن الخلق ، وسعة الخلق مما يقرب الى الله عز وجل . يا ابن آدم ، انك ناظر الى عملك يوزن خيره وشره ، فلا تحقرن من الخير شيئا وان هو صغر ، فانك اذا رأيته سرّك مكانه ، ولا تحقرن من الشر شيئا ، فانك اذا رأيته ساءك مكانه ، فرحم الله رجلا كسب طيبا وانفق قصراً ... يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا ، ولا تبيعن اخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا)) [23] .

لعل استقراء النص يفضي الى امكانية التصور الى مدى قدرة الحسن في فهم دلالة الزهد بجوهرها العبادي ، فالخطاب وان كان موجها الى الاخرين ، الا انه بذات الوقت يعبر عن التكوين الزهدي للحسن ، اذ عدّ عمل الانسان الدنيوي رهين بتصوره الذاتي لجدوى وجوده ، وعليه ، يتوجب على الانسان عرض اعماله على كتاب (الله تعالى) وسنة رسوله محمد ﴿ﷺ﴾ لانهما المصدران الشرعيان لتوجيه الانسان نحو تحقيق عبوديته (لله تعالى) والاقرار بربوبيته ، ولتحقيق ذلك ، فان الحسن يعطي ابعادا لتحقيق ذلك ، فصدق الحديث يعني الورع والحياء من (الله تعالى) عندما يقدم الانسان على نقيضه المتمثل بالكذب الذي يعد مفتاح الشرور . والوفاء بالعهد قرين الصدق واداء في تحقيق الذات الايمانية . وتستهدف الابعاد الاخرى المتمثلة برحمة الضعفاء وقلة الفخر والخيلاء ، وبذل المعروف ، تكوين جدلية ايمانية هدفها تقويم النفس الانسانية ذاتيا واجتماعيا على السواء . ولعل حسن الخلق يعد مؤشراً واضحا في خطاب الحسن ، بوصفه القياس العبادي مترجما بسلوك الانسان المسلم . كما يشير الخطاب الى مبدأ محاسبة النفس ، لان فيها قوام الصلة مع الشرع الاسلامي ، والمحاسبة بحد ذاتها جوهر روحاني يحاكي ويوجه النفس الانسانية ، وعليه ، فان الحسن يوصي بتتابع بذل الخير في جميع وجوهه ، وتجنب الشر بذات القياس بهدف تحقيق ميزان ذاتي يرى الانسان فيه مدى اهمية وجدوى ذلك متمثلا في الفوز برضوان (الله تعالى) في الدنيا والاخرة والذي يعد الغاية الجوهرية للوجود الانساني .

ويوضح الحسن العلاقة بين القول والعمل ودورهما في بناء الذات الزهدية ونتائجهما العبادية بقوله ((ابن آدم ، ان لك قولا وعملا ، فعملك احق بك من قولك . وان لك سريرة وعلانية ، فسريرتك اولى بك من علانيتك ، وان لك عاجلة وعاقبة ، وعاقبتك احق بك من عاجلتك . ابن آدم ، ان الله (تبارك وتعالى) يقول (اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه)[24] ، فانظروا وفقكم الله كيف افتقر الكلم الطيب الى العمل الصالح ، فاعملوا صالحا وفقكم الله تحمدون عاقبته)) [25] . وتظهر بالنص دائرة الايمان والزهد بتفاعلية قوامها التصديق بالعمل الصالح الذي ورد في الاية الكريمة حيث تحقيق رضوان (الله تعالى) والفوز بالجنة وهناك الحقيقة النهائية التي عبر عنها الحسن قائلا ((انما انت ضيف ، والضيف مرتحل ومستعار ، والعارية مؤداة ومردودة ، فما عسى بقاء ضيف وبقاء عارية ، لله در اقوام نظروا بعين الحقيقة ، وقدموا الى دار المستقر)) [26] .

ويطرح الحسن اسس بناء الذات الزهدية من خلال تحديد اصول الشر وضرورة الابتعاد عنه بقوله ((اصول الشر ثلاثة وفروعه ستة ، فالاصول الثلاثة : الحسد والحرص وحب الدنيا ، والفروع الستة : حب النوم ، وحب الشبع ، وحب الراحة ، وحب الرئاسة ، وحب الثناء ، وحب الفخر)) [27] . وتشكل هذه الابعاد تداعيات النفس الانسانية نحو الحياة الدنيا ، فيكون قوامها

السلوك الدنيوي والغفلة عن الدار الاخرة التي حرص الحسن على التنبيه اليها في خطاباته الوعظية .

ويعطي الحسن تصورا عن مفهوم عبوديته (الله تعالى) ، فعندما سأله رجلا ((كيف اصبحت ؟ قال : بخير ، قال : كيف حالك ؟ فتبسم الحسن ثم قال : لا تسأل عن حالي ، ما ظنك بناس ركبوا سفينة ، ثم توسطوا البحر ، فانكسرت سفينتهم فتعلق كل انسان منهم بخشبة، على أي حال هم ؟ قال الرجل : على حال شديد ، قال الحسن : حالي اشد من حالهم ، فالموت بحري والحياة سفينتي والذنوب خشبتي ، فكيف يكون حال من وصفه هذا يا بني ؟ فلابد من ترك الذنوب ، والفرار الى علام الغيوب)) [28] . يعبر هذا الحوار عن ورع الحسن من (الله تعالى) الى الحد الذي يشعر انه مرتهن بذنوب يعلمها او لا يعلمها ، مما جعل الصورة التي رسمها لذاته صورة الرجاء برحمة (الله تعالى) ، ولكن الرجاء مشترط بالفرار الى رب العزة (تبارك وتعالى) ، ولا يتحقق هذا الفرار الا بترك الذنوب ، وهي معادلة ايمانية تشير الى تحقيق حياة الانسان المسلم بعيدا عن الذنوب التي يكون مصدرها احيانا الانهماك في الحياة الدنيا والركون اليها .

ويؤكد الحسن على الاخلاقيات الزهدية في بناء الشخصية الايمانية في تعاملها الاجتماعي ، وفي هذا المجال قال له رجل ((ان قوما يجالسونك ليجدوا بذلك الى الوقيعة فيك سبيلا ، فقال : هّون عليك يا هذا ، فاني اطمعت نفسي في الجنان فطمعت ، واطمعتها في النجاة من النار فطمعت ، واطمعتها في السلامة من الناس ، فلم اجد الى ذلك سبيلا ، فان الناس لم يرضوا من خالقهم ورازقهم ، فكيف يرضون عن مخلوق مثلي ؟)) [29] . ويطرح الحسن في هذا الحوار بعدا اخلاقيا في الزهد الاجتماعي ، وذلك لان رضى الناس غاية لا يمكن ادراكها ، واعطى الحسن قرينة لنزوعه الذاتي في طلب الجنة تضرعا الى (الله تعالى) ، وفي هذا اشارة الى مدى رحمة الخالق (تبارك وتعالى) الذي يرضى عن عباده الصالحين ، ولكن المعادلة الاجتماعية وفق تصور الحسن الزهدي لا تأخذ ذات النهج ، لان الناس كما وصفهم في اختلاف واضح في طريقة فهم الصلة مع الخالق (تبارك وتعالى) ، فكيف يمكن ان يكون جميعهم في موقف الرضى عنه ، وفي هذا دعوة واضحة من الحسن الى اعتماد المنهج الايماني القائم على الزهد لتتوحد النفوس ، وبذلك يمكن ان يكون الرضى سائدا بين ابناء المجتمع لانه يعتمد منهجا واحدا هو الايمان (بالله تعالى) وما يترتب على هذا الايمان من الاخلاقيات الاسلامية القويمة ، وقد حدث في مجلس الحسن ذلك ، اذ ((تساب رجلان في حضرة الحسن ، فقام المسبوب وهو يمسح العرق عن وجهه ويتلو : (ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الامور) [30] ، فقال الحسن : لله دره عقلها والله حين ضيعها الجاهلون)) [31] .

وتظهر فكرة اخلاص الشخصية الايمانية في زهد الحسن بتوصيف دقيق لعلاقة العبد بين ربه (تبارك وتعالى) من جهة ، ومع اقرب الناس اليه من جهة اخرى بقوله ((ابن أدم ، لا يغرنك من حولك السباع العادية ، ابنك وحليلتك وخادمك وكلالتك . اما ابنك فمثل الاسد ينازعك ما بين يديك . واما حليلتك فمثل الكلبة في الهرير والبصبصة ، واما خادمك فمثل الثعلب في الحيلة والسرقة ، واما كلالتك فوالله لدرهم يصل اليهم بعد موتك احب اليهم من لو كنت اعتقت رقبة . فاياك ان توقر ظهرك بصلاحهم فانما لك منهم ايامك القلائل ، واذا وضعوك في قبرك انصرفوا عنك فصفروا بعدك الثياب ، وضربوا الدفوف ، وضحكوا القهقه، وانت تحاسب بما في ايديهم ، فقدم لنفسك (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو ان بينها وبينه امدا بعيدا ، ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد)[32]، ايها الناس ، ان احدكم يحذره صاحبه فيتقيه ويحذره ، فكيف بمن حذره ربه نفسه وخوّفه عقوبته،بقول (الله سبحانه): (أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) [33]))[34]. وفي ضوء استقراء كلام الحسن في هذا المجال يتضح انتقاله في خطابه الوعظي من اطاره الاجتماعي العام الى الاطار الاسري ، وفي هذا اشارة الى منهجه الدقيق في تحديد اتجاهات الزهد الى الحد الذي قدم وصفا لطبيعة العلاقة في الاسرة والقائم على امرها ، واراد بذلك التوصيف ان نقاء الصلة مع (الله تعالى) هي الملاذ الامن ، لان الارتباط الاسري وان كان قويا في خضم الحياة الدنيا ، الا ان الانسان عندما يموت يذهب بعمله ، فهو رهين عمله ، ولذلك ، ينبغي عليه ان يراقب (الله تعالى) في نفسه بصورة مستديمة .

والى جانب حرص الحسن وشدته في محاسبة النفس بغية تنقيتها ، والتحذير المستمر من مغريات الحياة الدنيا ، الا انه يدرك تماما ان الانسان بطبيعته ليس ملاكا ، وعليه ، فقد ضّمن مواعظه الزهدية ابعادا ايمانية لمدى رحمة (الله تعالى) بعباده ، اذ قال ((ان الله (عز وجل) رفع عنكم الخطأ والنسيان وما اكرهتم عليه ، وما لا تطيقون ، واحل لكم في حال الضرورة اشياء مما حرم عليكم واعطاكم خمسا : اعطاكم الدنيا فضلا وسألكموها قرضا فما اعطيتموه منها طيبة بها انفسكم جعل لكم التضعيف من عشرة الى سبعمائة الى مالا يحصيه غيره ، والثاني ، اخذ منكم كرها فاحتسبتم وصبرتم ، ثم جعل لكم به الصلاة والرحمة لقوله (سبحانه وتعالى) : (اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) [35] ، والثالث ، (لئن شكرتم لازيدنكم) [36] ، والرابع ، لو اساء مسيئكم حتى تبلغ ذنوبه الكفر ثم تاب فانه يتوب عليه ويحبه حيث قال : (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [37] ، والخامس ، لو اعطى جبريل وميكائل ما اعطاكم لكان قد اجزل لهما فقال : (ادعوني استجب لكم) [38])) [39] .

وفي ضوء هذا الخطاب الوعظي ، يعطي الحسن مرتسما ايمانيا قوامه ابواب رحمة (الله تعالى) الكثير ة ، فالمسلم مدعو لتدبر هذه الايات الكريمة لانها تشكل افاق رحبة لحب (الله تعالى) لعباده ، فخصّهم بواسع التوبة والانابة التي تعد املا لا ينقطع في العودة الى دائرة

الايمان . ويكمن الزهد بهذا الخطاب في معرفة المسلم امتلاكه الاختيار في اتباع منهج الشرع الاسلامي الذي يحض على الزهد دون الانقطاع عن متطلبات الحياة الدنيا وفق المنظور العبادي الكامن في الشريعة الاسلامية .

وفقا لما تقدم ، ذكر الحسن الصورة المثلى لزهد عباد (الله تعالى) المخلصين الذين وصلوا الى فهم واضح لادوارهم في الحياة الدنيا استعدادا للاخرة وفي هذا الصدد يقول الحسن ((ان لله (سبحانه وتعالى) عباداً كمن رأى اهل الجنة في الجنة مخلدين ، وكمن رأى اهل النار في النار مخلدين ، قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، حوائجهم حقيقة ، والسنتهم عفيفة ، صبروا اياما قصارى تعقب راحة طويلة ، اما الليل فمصافة اقدامهم ، تسيل دموعهم على خدودهم ، يجأرون الى ربهم : ربنا ، ربنا . واما النهار فحلماء علماء بررة انقياء كأنهم القداح ، ينظر اليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ، او خولطوا ، ولقد خالط القوم من ذكر الاخرة امر عظيم)) [40] . ان هذا الترصين لا يخرج عن زهد الحسن ذاته ، وانما طرحه درسا للاخرين ، واراد بذلك التنبيه من الغفلة في الحياة الدنيا الى مآل المسلم في الاخرة ، فقصر الامل ينبغي ان يكون عماد الزاهد ، والدعاء المستديم يشكل قوام الزهد ، ولذلك لاحظنا الموازنة الزهدية في سلوك من وصفهم الحسن في ليلهم ونهارهم ، فغالب امرهم الحزن المرتكز على الايمان ما بين الترقب والرجاء ، وهذه كانت حال الحسن ذاته ، اذ ((قيل له : اراك طويل البكاء ، فقال : اخاف ان يطرحني ولا يبالي)) [41] . وقصد بذلك ان يطرحه (الله تعالى) في النار ، فلذلك كان كثير الحزن والبكاء حياءً من (الله سبحانه وتعالى) .

ويعد الحسن الذكر والمذاكرة بين المؤمنين عنصراً ايمانيا فاعلا في تكوين مفهوم الزهد ، وفي هذا المجال ، قال ((ايها الناس ، اني اعظكم ولست بخيركم ولا اصلحكم ، واني لكثير الاسراف على نفسي غير محكم لها ، ولا حاملها على الواجب في اطاعة ربها ، ولو كان المؤمن لا يعظ اخاه الا بعد احكام امر نفسه لعدم الواعظون ، وقلّ المذكرون ، ولما وجد من يدعو الى الله (جل ثناؤه) ، ويرغب في طاعته ، وينهي عن معصيته ، ولكن في اجتماع اهل البصائر ، ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضا حياة لقلوب المتقين ، واذكار من الغفلة ، وامن من النسيان ، فالزموا عافاكم الله مجالس الذكر ، فرب كلمة مسموعة ، ومحتضر نافع)) [42] . يوظف الحسن في هذا المضمار المذاكرة بين المؤمنين بوصفها احد اعمدة الزهد ، لانها تفضي الى مقاربات ايمانية بين الذاكرين مما يؤدي بالنتيجة الى توحيد التصور باهمية الزهد بوصفه بعدا حيويا في بناء الشخصية الايمانية،فضلا عن شيوعها في الاوساط الاجتماعية مما يؤدي الى تكوين ظاهرة قوامها توحيد التصور الاجتماعية لدلالات الايمان المقترنة بالزهد.

ومن اساسيات الزهد وفق منظور الحسن ترصين الذات الذي يؤدي وظيفة حيوية في بناء المجتمع ، اذ اوضح ذلك بقوله ((رحم الله رجلا خلا بكتاب الله فعرض عليه نفسه ، فان

وافقه حمد ربه وسأله الزيادة من فضله ، وان خالفه اعتقب واناب ورجع من قريب ، رحم الله رجلا وعظ اخاه واهله فقال : يا اهلي ، صلاتكم صلاتكم ، زكاتكم زكاتكم، جيرانكم جيرانكم، اخوانكم اخوانكم ، مساكنكم مساكنكم ، لعل الله يرحمكم فان الله (تبارك وتعالى) اثنى على عبد من عباده ، فقال (وكان يأمر اهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا) [43] ، يا ابن آدم ، كيف تكون مسلما ولم يسلم منك جارك ، وكيف تكون مؤمنا ولم يامنك الناس)) [44] . وهنا تتضح معالم البناء الاخلاقي في خطاب الحسن وضرورة اعتماده في التفاعل الاجتماعي ، اذ تعد الاخلاق بقوامها الزهدي احدى معالم التوازن الحياتي ، ولا يتحقق ذلك الا من خلال الامتثال لاوامر (الله تبارك وتعالى) ، اذ ذكر الاية الكريمة لادراكه اهمية الصلاة لكونها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، والزكاة لكونها تحقيقا للتكافل الاقتصادي وطريقا قويما لسلامة البناء الاجتماعي .

ويوضح الحسن مديات التمكين الزهدي في الذات بقوله ((قوة في دين،وحزم في لين، وايمان في يقين ، وحلم في علم ، وكيس في رفق ، واعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمل في فاقة ، واحسان في قدرة ، وطاعة في نصيحة ، وتورع في رغبة ، وتعفف في جهد، وصبر في شدة ، لا ترده رغبة ، ولا يبدره لسانه ، ولا يسبقه بصره ، ولا يغلبه فرجه، ولا يميل به هواه ، ولا يفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته))[45] ، ويعطي الحسن في هذا البناء الايماني القائم على الفهم الزهدي صورة تكاملية في ضوء علائق القيم التي اوردها والتي تشكل نتائجها حقيقة الزهد في المستويين الذاتي والاجتماعي على حد سواء .

المحور الثالث : الاتجاهات الفكرية

اعتمد الحسن البصري ايمانه (بالله تعالى) منهجا في تحديد اتجاهاته الفكرية . وفضلا عن ذلك ، فان ذاته الزهدية ادت دورا حيويا في اصدار احكامه حيال المتغيرات السياسية والاجتماعية . فاصبح تبعا لذلك ، مرجعا في العديد من تلك المتغيرات . فعلى المستوى السياسي ، حرص الحسن على الابتعاد عنها دفعا للفتن وانشقاق صفوف الامة ، اذ كانت رؤيته شمولية في هذا المجال ، فعندما قام عبدالرحمن بن الاشعث بحركته ضد الدولة الاموية في سنة (81هـ-700م) واستطاع والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي من اخمادها ، سئل الحسن بامكانية قتال الحجاج ، فقالوا ((يا ابا سعيد ، ما تقول في قتال هذا الطاغية الذي سفك الدم الحرام ، واخذ المال الحرام ، وفعل وفعل ... وذكروا من فعل الحجاج ...فقال الحسن : ارى الا تقاتلوه ، فانها ان تكن عقوبة من الله فما انتم برادي عقوبة الله باسيافكم ، وان يكن بلاء فاصبروا حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين)) [46] .

وحكم الحسن الفكري بهذا الشأن يعبر عن رؤيته الموضوعية بعدم جدوى اثارة الحروب بين صفوف ابناء الامة الاسلامية ، فضلا عن تصوره الزهدي القائم على فهمه لآيات القرآن الكريم بوصفها الحاكمية بعقاب (الله تعالى) قبل ابتدار العباد بسفك الدماء، اضافة الى ظهور دلالة الصبر سمة واضحة في فكره ، اذ اوصى بالصبر لاعتقاده الجازم ان ثمار الصبر في كل احوالها ايجابية للذات والمجتمع على السواء . وعندما سئل عن الموقف الذي ينبغي اتخاذه من الفتنة ، قال ((لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فلما سئل : ولا مع امير المؤمنين ؟ فغضب ، وقال : نعم ، ولا امير المؤمنين)) [47] . ويعبر غضب الحسن في هذا الحوار عن رفضه ممارسات السلطة عندما تاخذ ابعادا سلبية في تطبيقاتها على المجتمع ، ولكنه يأخذ بعين الاعتبار الاثار الخطيرة على احتراب الامة وسفك دماء ابناءها .

وبناء على ما تقدم ، عمد الحسن الى التوجيه الفكري وسيلة لاجتناب القتال في حركة يزيد بن المهلب في سنة (102هـ-720م) قائلا ((ايها الناس ، التزموا رجالكم، وكفوا ايديكم، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضا على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ، ليس لاهلها بباق ، وليس الله عنهم فيما اكتسبوا براض ، انه لن يكن فتنة الا كان اكثر اهلها الخطباء والشعراء والسفهاء واهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها الا المجهول الخفي والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفيا فليزم الحق ، وليحبس نفسه شرفا ، وكفا له به من الدنيا خلفا ، ومن كان منكم معروفا شريفا فترك ما يتنافس فيه نظراؤه من الدنيا ارادة الله بذلك ، فواهاً لهذا ما اشده واعظم اجره واهدى سبيله ، فهذا غدا (يوم القيامة) ، القرير عينا ، الكريم عند الله مآبا)) [48] .

تضمن الخطاب الفكري للحسن ابعادا من شأنها تقويم سلوكيات المجتمع وفق الاخلاقيات الاسلامية ، اذ ارتكز في توجيهاته على ضرورة تجنب القتال بين المسلمين لما في ذلك من اثار سلبية باعتماده اسلوبا للتعامل بين فئات المجتمع وبالتالي يؤدي الى الفوضى الاجتماعية . ويستهدف جوهر الخطاب توسيع رؤية المسلمين من نطاقها الدنيوي الضيق الى الافاق الاخروية حيث رجوع المسلم الى ربه (تبارك وتعالى) . ولهذا ، فان الحسن يحذر من التنافس على الدنيا الفانية ، ويذّكر بيوم القيامة ، وهو يوم الفصل بين العباد . وفي تقويم تكاملي لافكار الحسن في هذا الطرح ، يلاحظ تفاعلية ذاته الزهدية مع المتغيرات الاجتماعية وفق منظور الشريعة الاسلامية ، اذ لم ينظر الحسن الى جزئيات التعامل الاجتماعي في مجال الحرب ، بل تعداه باعطاء تصورات واقعية عن حيوية وحدة الصف وتجنب الفتن والحروب كوسائل لحسم المشاكل بين ابناء الدين الاسلامي الحنيف . وعلية ، ينطلق فكره من قوة تأثيره الاجتماعي وليس من موقف الحياد السلبي ان جاز التعبير .

ان افكار الحسن الشمولية الداعية الى وحدة البناء الاجتماعي لا تعني انه كان بعيدا عن تشخيص اتجاهات وسلوك السلطة السياسية ، اذ عمد والي العراق عمر بن هبيرة الى استدعاء

الحسن البصري ، فعندما ((خرج الحسن من عند ابن هبيرة ، فاذا هو بالقراء على الباب ، فقال : ما يجلسكم هاهنا ؟ تريدون الدخول على هؤلاء الخبثاء ؟ اما والله ما جالستهم مجالسة الابرار ، تفرقوا فرق الله بين ارواحكم واجسادكم ، قد فرطحتم نعالكم ، وشمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، فضحتم القرّاء فضحكم الله ، والله لو زهدتم فيما عندهم ، لرغبوا فيما عندكم ، ولكنكم رغبتم فيما عندهم ، فزهدوا فيكم ، ابعد الله من ابعد)) [49] .

ويبدو للوهلة الاولى ان هناك تقاطعا بين الخطاب الفكري في هذا النص ، وحقيقة الامر ان الحسن امتلك القدرة الفكرية في تحديد اتجاهات التعامل مع السلطة ، اذ رأى اقبال النخبة الاجتماعية المتمثلة بالقراء وهم اهل العلم بحرصهم على مجالسهم الامراء كسبا للاموال والجوائز ، وهذا يتقاطع مع دورهم الحقيقي والمتمثل بنشر علومهم الدينية ومعارفهم الفقهية في المجتمع الذي يعد الهدف الاساس في فكر الحسن ، فضلا عن ادراك الحسن ان الفكر والعلم الذي لا يتمثله الامير او الحاكم لا يستطيع العلماء ان يغيروا كثيرا في سلوكياته السياسية ، وعليه ، فقد كان اولئك العلماء موضع نقد شديد من قبل الحسن لانهم لم يدركوا البعد الفاعل في ذواتهم العلمية والتي ينبغي ان يعتمدوها في تعاملاتهم مع الاخرين الا وهو الزهد الذي كان عاملا فاعلا في اخلاقيات الحسن البصري .

ولم يقتصر الحسن في خطاباته الفكرية على جزئيات التعامل مع السلطة في الحالات المفردة اذ كان خطابه موجها الى اهمية استمرارها بوصفها المنظِمة لامور الرعية مادامت تسير وفق الشريعة الاسلامية ، وفي هذا السياق ((قال الاشعث : كنت عند الحسن حتى دخل عليه رجل مصفر طيلسانه من اهل البحرين ، فقال : يا ابا سعيد ، اني اريد ان اسألك عن الولاة ، فقال الحسن : سل عما بدا لك ، فقال ما تقول في ائمتنا هؤلاء ؟ قال : فسكت مليا ثم قال : وما عسى ان اقول فيهم ، وهو يلون من امرنا خمس : الجمعة والجماعة والفئ والثغور والحدود.والله لا يستقيم الدين الا بهم وان جاروا وان ظلموا والله لما يصلح الله بهم اكثر مما يفسدون))[50] .

تضمن رأي الحسن بعدا فاعلا في هذا الخطاب الفكري ، اذ احتوى دفعا للضرر الاكبر الذي ينجم عن غياب السلطة بضرر اصغر بضرورة وجودها على الرغم من بعض ممارستها القائمة على الظلم الاجتماعي ، ولكن الحسن لا يتردد في موعظة الحاكم ، ولذلك قال مخاطبا الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (65-86هـ/685 -705م) واعظا اياه ((فكر يا امير المؤمنين في قول (الله تبارك وتعالى) : (وما اضلنا الا المجرمون) [51] : (انما يأتيكم به الله ان شاء وما انتم بمعجزين) [52] ، يعني ما انتم بناجين من عذابه ان اتاكم ولا بممتنعين منه ، ولا ينفعكم نصحي حينئذ ان اردت ان انصح لكم عند حلول العذاب بكم)) [53].

ولم يقتصر الحسن في طروحاته الفكرية على التوجيه والارشاد بطبيعة العلاقة مع السلطة بغض النظر عن صنفها ، فعندما اراد والي مدينة البصرة عدي بن ارطأة تعيينه قاضيا ، اعتذر الحسن عن ذلك ، واوضح الاسباب بقوله ((اما بعد ، ايها الامير ، فان الكاره للامر غير جدير بقضاء الواجب فيه ، وان العامل بغير نية حقيق ان لا يعان عليه . ولك في المختارين للامر الذي دعوتني اليه كفاية وقناعة ، فانه لا خير في الاستعانة بمن لا يرى ان العمل الذي يدعى اليه واجب عليه وفرض لازم له . فاعفني ايها الامير عافاك الله ، واحسن اليّ بترك التعرض لي ، فان الله لا يضيع اجر من احسن عملا ... فعفاه عدي بن ارطأة واكرمه ، وقال : والله ما كنت لابتليه بما يكرهه)) [54] .

لعل اختيار الوالي عدي للحسن البصري قاضيا ينبع من ادراكه بقدرة الحسن على تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ، فهو اعتراف ضمني بمكانة الحسن الدينية وتأثيره الاجتماعي ، ووفقا لذلك ، ادرك الحسن ان قبوله منصب القضاء ربما يجعل المجتمع يفسر ذلك بتقربه الى السلطة التي حرص الحسن دائما على الابتعاد عنها ، فيصبح هناك تناقض على مستوى التصورات الاجتماعية . ومن ناحية اخرى ، كان الحسن لا يريد ان يكون طوعا لتوجهات الولاة الذين لم يكونوا على الدوام في وفاق مع جميع فئات المجتمع . كما يظهر ان الحسن ادرك خطورة ذلك بامكانية حصول انقسام اجتماعي قوامه التوجهات السياسية بحيث تسقط احكام المجتمع على مواقف الحسن في علاقته مع الوالي من جهة ، ومع فئات المجتمع من جهة اخرى ، والمحصلة النهائية تؤدي الى تفكك المواقف الاجتماعية حيال الحسن والوالي كل وفق التزامهما باحكام الشريعة الاسلامية .

في ضوء ما تقدم ، اتضح ان الحسن البصري قصد الابتعاد عن التعامل مع السلطة السياسية بمختلف انماطها ، ولكنه بذات الوقت ادرك اهمية وجودها واستمرارها لادارة شؤون الامة الاسلامية . وعلية ، فقد توسم الحسن في شخصية الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت : 101هـ-719م) النموذج الذي يستجيب للخطاب الوعظي والفكري ، اذ كتب مخاطبا الخليفة عمر بن عبد العزيز قائلا ((اعلم يا امير المؤمنين ان الله جعل الامام العادل قوام كل ماثل ، وقصد كل جائر وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والامام العادل يا امير المؤمنين ... كالاب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كبارا ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ... والامام العادل يا امير المؤمنين وصي اليتامى ، وخازن المساكين يربي صغيرهم ، ويقوم كبيرهم ... واعلم يا امير المؤمنين ، ان الله

انزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف اذا اتاها من يليها ؟ وان الله انزل القصاص حياة لعباده ، فكيف اذا قتلوا ، من يقتص لهم ؟ ... اذكر يا امير المؤمنين ، الموت وما بعده ، وقلة اشياعك عنده ، وانصارك عليه ، فتزود له ولما بعده من الفزع الاكبر ... فالآن يا امير المؤمنين ، وانت في مهل قبل حلول الاجل ، وانقطاع الامل ، لا تحكم يا امير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فانهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك واوزاراً مع اوزارك ، وتحمل اثقالك ، واثقالا مع اثقالك)) [55] .

تكمن اتجاهات الحسن الفكرية في خطابه ، الوعظ الديني والتوجيه السياسي ، مذكرا بواجبات الخليفة حيال الرعية ، محاولا توضيح عناصر الضعف في الفترة السابقة على خلافة عمر بن عبد العزيز ، اذ اكد الحسن في خطابه على اهمية انصاف المظلومين وذلك من خلال تكوين علاقة حيوية ومتواصلة ما بين الخليفة والرعية بهدف التعرف عن قرب على مظالمهم، ومشيرا الى اهمية رعاية الفئات الاجتماعية المعدمة من الارامل والايتام بوصفها من اكثر الفئات استحقاقا للرعاية في منظور الشريعة الاسلامية . كما اشار الحسن الى ضرورة تطبيق الاحكام الشرعية باقامة الحدود بوصفها العنصر الفاعل في الحفاظ البناء الاجتماعي ، ولم يتجاوز الحسن التأكيد على ضرورة مجابهة المستكبرين والظلمة ، والتي وكما يبدو ان الحسن لاحظها ماثلة في المجتمع ، وهنا تظهر مسؤولية الخليفة بزجرهم والتصدي لهم ، واضافة الى ذلك ، فان الحسن يذكّر الخليفة عمر بالموت على الدوام . وعلية ، ينبغي على الخليفة ان يطبق احكام الشريعة منبها اياه الى خطورة عدم تنفيذ ذلك مما يؤدي الى تحمل الخليفة اوزاره واوزار الظلمة يوم القيامة . كما يشكل الخطاب رؤية سياسية واجتماعية في اطار شرعي وزهدي على السواء ، ولذلك كان الحسن لا يتوانى عن التوجيه الفكري بهدف حفظ الخليفة والرعية على السواء [56] .

الخاتمة

يتضح من استقراء سيرة الحسن البصري زاهدا ومفكرا ما ياتي :

اولا. تكوّنت ذات الحسن البصري في البيت النبوي الشريف ايمانا وخلقا . ومن هنا ، يعد هذا التكوين بعدا حيويا في توجهاته التي تلاقت مع عهد الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾ ، اذ اكتسب من رؤيته لسلوكهم ابعادا اخلاقية ، ولذلك رأيناه حزينا عند استشهاد امير المؤمنين عثمان بن عفان ﴿رضي الله عنه﴾ . وبعد انتقاله الى مدينة البصرة ، حرص على تحصيل العلوم والمعارف الاسلامية في مستوى الدراسات القرآنية والسنة النبوية ، فضلا عن امتلاكه المعرفة باداب اللغة العربية . وتزامن مع ذلك ، حرصه الواضح على تكوين صورة الزهد في حياته والمستوحاة من رؤيته زهد الصحابة ﴿رضي الله عنهم﴾، كما انه لم يتجاوز الجهاد في سبيل الله تعالى، اذ شارك في الفتوحات الاسلامية في المناطق الشرقية من الدولة الاسلامية .

ثانيا. تشكلت ذات الحسن الزهدية ووعظه الاجتماعي وفق بعد جوهري يكمن في تطبيق احكام الشريعة الاسلامية ، اذ نتج عن هذا التطبيق قدرته في فهم دلالة الزهد ودوره في تكوين الشخصية الاسلامية . وبناء على ذلك ، اكد الحسن على اهمية اقتران الخطاب بالعمل والتطبيق بهدف تحقيق المجتمع الاسلامي الامثل . وتضمن خطاب الحسن الوعظي الكيفيات التي ينبغي اعتمادها في تنقية الذات من شوائب التعلق بالحياة الدنيا وتعاملها الاخلاقي مع المجتمع ، وتحقيق ذلك من وجهة نظر الحسن من خلال المذاكرة بين ابناء المجتمع بهدف نشر الافكار التي من شأنها الحفاظ على التوازن الاجتماعي وفق المنظور الشرعي والزهدي على السواء .

ثالثا. لم يكن الحسن البصري منعزلا عن مجريات وقائع عصره ، بل تفاعل بشكل ايحابي عبر خطابه الوعظي الموجه للخلافة بوصفها المسؤولة عن ادارة شؤون الامة الاسلامية ، سواء على مستوى الترغيب او الترهيب ، مستهدفا من ذلك التحذير من الفتن بين المسلمين ، ولذلك كان موضع ثناء اغلب الاطراف السياسية والفكرية والاجتماعية انذاك .

جدول الابعاد الزهدية في خطاب الحسن الوعظي*

القيم الزهدية	العدد	النسبة المئوية
حسن الخلق	84	%17.07
الورع	78	%15.85
ذكر الله تعالى	55	%11.17
مكانة العلم	43	%8.73
محاسبة النفس	38	%7.72
الاستعداد للموت	33	%6.70
الصبر	23	%4.67
الكسب بالحلال	22	%4.47
حسن الصحبة	19	%3.86
حسن الظن بالله تعالى	15	%3.04
التوبة	15	%3.04
الخوف من الله تعالى	14	%2.84
الايمان بالقضاء والقدر	14	%2.84
طاعة الله تعالى	13	%2.64
شكر الله تعالى	11	%2.23
قصر الامل	9	%1.82
صلة الرحم	6	%1.21
المجموع	492	

* د. موفق سالم نوري الجوادي : نهج الحكمة / نصوص في الحكمة الاسلامية (الحسن البصري) ، الموصل ، الكتاب قيد النشر ، ص 22–198.

هوامش البحث :

(1) ابن سعد : محمد (ت : 230هـ-844م) ، الطبقات الكبرى ، (بيروت : 1960) ، 156/7 ؛ ينظر، الاصبهاني : احمد بن عبد الله (ت:430هـ-1038م) ، حلية الاولياء وطبقات الاصفياء ، (بيروت : 1967) ، 131/2 .

(2) الذهبي : محمد بن احمد (ت: 748هـ-1347 م) ، سير اعلام النبلاء ، (بيروت : 1982) ، 565/4 .

(3) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، 565/4 .

(4) الذهبي : تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، القاهرة ، (د:ت) ، 98/4 .

(5) ابن خلكان : احمد بن محمد بن ابي بكر (ت:681هـ-1282 م) ، وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان مما ثبت بالنقل او السماع او اثبته العيان ، بيروت ، (د:ت) ، 69/2 .

(6) المرتضى : علي بن الحسين الموسوي (ت:436هـ-1044م) ، الامالي ، (بيروت : 1967 ، 110/1.

(7) ابن قتيبة : عبدالله بن مسلم (ت:276هـ-889 م) ، عيون الاخبار ، القاهرة ، (د:ت) ، 118/2 .

(8) ابن حنبل : احمد بن محمد (ت: 264هـ-877م) ، المسند ، بيروت ، (د:ت) ، 226/1 .

(9) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، 565/4 .

(10) ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي (ت:597 هـ- 1200 م) ، صفة الصفوة ، (حيدر اباد الدكن : 1954) ، 130/2 .

(11) الاصبهاني : حلية الاولياء ، 237/2 .

(12) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، 134/7 .

(13) الشهرستاني : محمد بن عبد الكريم (ت: 548 هـ- 1153 م) ، الملل والنحل ، (القاهرة : 1968) ، 48/1 ؛ ينظر ، محمد عمارة : الخلافة ونشأة الاحزاب الاسلامية ، (بيروت : 1977) ، ص183 .

(14) ابو طالب المكي : محمد بن علي الحارثي (ت: 386 هـ- 996 م) ، قوت القلوب ، (القاهرة : 1961) ، ص304 .

(15) الذهبي : تاريخ الاسلام ، 105/4 .

(16) البلاذري : احمد بن يحيى (ت: 279 هـ-892م) ، فتوح البلدان ، (القاهرة : 1959) ، ص404 .

(17) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، 71/2 .

(18) ابن الجوزي : الحسن البصري ، (القاهرة : 1931) ، ص37 -38 .

(19) الاصبهاني : حلية الاولياء ، 132/2-133 .

(20) الاصبهاني : حلية الاولياء ، 132/2 .

(21) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، 127/7 .

(22) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، 71/2 .

(23) ابن الجوزي : صفة الصفوة ، 235/3 ؛ ينظر ، ابن رجب : عبد الرحمن بن احمد الحنبلي (ت: 795 هـ- 1392 م) ، جامع العلوم والحكم ، (القاهرة : 1965) ، ص209 .

(24) سورة فاطر / الاية 10 .

(25) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص64 ؛ ينظر ، الزمخشري : محمود بن عمر (ت:538هـ-1144م) ، ربيع الابرار ، (بغداد : 1984) ، 738/1 .

(26) ابن الجوزي: الحسن البصري، ص63؛ ينظر، البيهقي : محمد بن الحسين (ت: 471 هـ –1077 م)، المحاسن والمساوئ ، (بيروت : 1960) ، ص101 .

(27) ابن عبد ربه : احمد بن محمد الاندلسي (ت:327 هـ–938م) ، العقد الفريد ، (القاهرة : 1956) ، 322/2 ؛ ينظر ، الغزالي : محمد بن محمد (ت:505 هـ–1111م) اداب الصحبة والمعاشرة ، (بغداد : 1984) ، ص240 .

(28) الزمخشري : ربيع الابرار ، 323/2 .

(29) ابن كثير : اسماعيل بن عمر الدمشقي (ت:774هـ–1372 م) ، البداية والنهاية ، (بيروت : 1977)، 271/9 ؛ ينظر ، الشعراني : عبد الوهاب بن احمد (ت: 940 هـ– 1533م) ، الطبقات الكبرى المسمى (لواقح الانوار في طبقات الاخيار) ، (القاهرة : 1954) ، 29/1 .

(30) سورة الشورى / الاية 43 .

(31) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص 23 .

(32) سورة ال عمران / الاية 30 .

(33) سورة الاعراف / الاية 99 .

(34) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص62 ؛ ينظر ، القرطبي : محمد بن احمد الاندلسي (ت:671 هـ–1272 م) ، التذكرة في احوال الموتى والاخرة ، (بيروت : 1997) ، ص450 .

(35) سورة البقرة / الاية 157 .

(36) سورة ابراهيم / الاية 7 .

(37) سورة البقرة / الاية 222 .

(38) سورة غافر / الاية 60 .

(39) السمرقندي : ابو بكر محمد بن عثمان (ت: 580 هـ–1184 م) ، تنبيه الغافلي ، (بغداد : 1989) ، ص138 .

(40) الاصبهاني : حلية الاولياء ، 151/2 .

(41) ابن القيم : محمد بن ابي بكر (ت: 751هـ–1350 م) ، الجواب الكافي ، (عمان : 1986) ، ص32.

(42) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص60 .

(43) سورة مريم / الاية 55 .

(44) الجاحظ:عمرو بن بحر (ت:255هـ–868 م) ، البيان والتبيين ، (القاهرة : 1968) 134/3 –135 .

(45) ابن ابي الدنيا : احمد بن عبدالله (ت:181 هـ–797 م) ، كتاب اليقين ، (القاهرة : 1969) ، ص7 ؛ ينظر، المحاسبي: الحارث بن اسد(ت: 243 هـ–857 م)، رسالة المسترشدين، حلب، (د:ت) ، ص47 .

(46) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، 163/7–164 ؛ ينظر ، المحاسبي : الرعاية لحقوق الله ، تحقيق مرغريت سمث ، (لندن : 1940) ، ص273 .

(47) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، 174/7 .

(48) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص53 ؛ ينظر ، عبد الرحمن بدوي : تاريخ التصوف الاسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، (الكويت : 1978) ، ص158 .

(49) الذهبي : سير اعلام النبلاء ، 586/4 .

(50) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص57–58 ؛ ينظر ، القشيري : عبد الكريم بن هوازن (ت: 465 هـ – 1072م) ، الرسالة القشيرية ، (القاهرة : 1974) ، 469/2 .

(51) سورة الشعراء / الاية 99 .

(52) سورة هود / الاية 33 .

(53) الحسن البصري : رسالة في القدر ، تحقيق محمد عمارة ، ضمن كتاب (رسائل العدل والتوحيد) ، (القاهرة : 1971) ، 82/1 .

(54) ابن الجوزي : الحسن البصري ، ص54 .

(55) الغزالي : مكاشفة القلوب ، (بغداد : 1987) ، ص212 .

(56) ينظر جدول الابعاد الزهدية في خطاب الحسن الوعظي .